المحاضرة (١٩)

(إبراهيم ناجي)

ينساب في شعر إبراهيم ناجي تيار ذاتي عاطفي قلما نجد له مثيلاً عند غيره من شعراء عصره، وهو ابرز تيار شعري عرفته جماعة أبولو. وهو الذي وضع شاعرنا في مركز الصدارة بين أقرانه حتى اقترن اسمه بمؤسس الجماعة، زعامة وريادة. ولم يصل هذا التيار في رقته وانسيابيته عند شاعر كما وصل عند إبراهيم ناجي.

وشاعرنا صحب عاطفة الحب منذ نشأ وترعرع حتى مات، ويسخر كل شعره له، حتى اجمع الدارسون على أن شعر ناجي كله قصيدة واحدة، هي قصيدة حب. وإذا كان اقرانه وفي مقدمتهم احمد زكي ابو شادي، قد لهجوا بذكر الحب، وتغنوا به شعراً عاطفياً رقيقاً، فإنهم لم يحققوا ما حققه ناجي تجربة صادقة حتى نهاية عمره.

البيئة والشاعر:

في ضاحية (شبرا) وهي إحدى ضواحي القاهرة، ولد ونشأ إبراهيم ناجي. وشبرا التي تعد الآن حياً شعبياً كبيراً من أحياء القاهرة كانت يومئذ حياً صغيراً تقطنه مجموعة قليلة من العائلات المترفة. وقد نشأ الشاعر في ظل عائلته تحت رعاية خاصة. وكانت شبرا هذه ذات طبيعة ساحرة، تحيط بها الحقول وتجري من تحتها النهيرات، وتتفرع منها قنوات، كما يقول رفيق عمره، الشاعر صالح جودة وقد اطلق عليها هذا الشاعر (مدينة الاحلام) لسحرها وجمالها.

وإذا كان للبيئة من تأثير في طبيعة الشعراء وفي شعرهم، فإننا نقرأ أن طبيعة شبرا كان لها تأثير مباشر في توجيه شعره، الذي ألهبته تجربته العاثرة في الحب.

وليس هذا فحسب، فقد كان من حسن حظ هذا الشعر، أن الله قد انعم على صاحبه ألا يحل في ارض إلا ويكون الله قد حباها من نعمة الجمال، ما جعلها سبباً من اسباب توجيه شعره، من ذلك أنه قضى عدة سنوات في مدينة المنصورة، وهي كما يصفها صالح جودة (ارض طيبة، تنبت الشعر والجمال والحب والخيال).

كما أن من حظ هذا الشعر أيضاً، أن المنصورة قد جمعته بمجموعة من الشعراء العاطفيين الذين انضموا بعدئذ تحت راية ابولو، وهم صالح جودة ومحمد عبد المعطي الهمشري وعلي محمود طه. وهكذا كان للطبيعة وللعشرة الخاصة، اثر في شاعرية ناجي، وفي تلونه بهذا اللون الذاتي العاطفي الخالص.

ولم تكن هذه البيئة والعشرة، هما اللتان أثرتا في شعرهن ووجهته نحو الرومانسية الحالمة فقد كان لثقافته الاوربية تأثيرها البالغ أيضاً، وهي ثقافة تمر في روافد عدة، من اللغات الأوربية، فيما عدا الانكليزية، التي وعاها وعياً عميقاً ، فقد كان يجيد الالمانية والفرنسية والايطالية. وكان ثلاثة من شعراء البحيرة الانكليز، قد أثروا فيه وحازوا اعجابه، وهم شيلي وكيتس وودزورث. فإذا

عرفنا أن هؤلاء كانوا كلهم شعراء الطبيعة والرقة والعاطفة، وأنهم رومانسيون اتضح لنا شدة تأثيرهم في طبيعته وشعره.

ومما له صلة بعنصر الثقافة، وتأثيره في توجهه إلى شعر العاطفة والحب، وفي طبع مزاجه بهذا الطابع الرقيق، أن والده قد وجهه إلى قراءة قصص (شرلوك ديكنز- ورايدرهاجار وسواها، ولكن اكثرها تأثيرها- فيما يبدو - قصة الكاتب الكبير، ديكنز دافيد كوبر فيلد- التي تتحدث عن غرامه بالفتاة (دورا) والتي يقول عنها ناجي نفسه ((فلم يكن عجباً أن ينتعش ديكنز في خيالي بسمو روحه ونقاء قلبه مع أنه لم يكن شاعراً، ولكن الذي كتبله نثراً هو في الحق ارفع واعظم من شعر ألوف من الشعراء)) وكما عرف ديكنز وجوده العزيز في شخص (دورا)، عرف شاعرنا وجوده العزيز في فتاته ع . م التي كانت إحدى قريباته الجميلات).

ولعل هذا السمو الروحي الذي اشار إليه في قصة (دايفد كوبرفيلد) هو الذي حفزه لأن يكتب اولى قصائده غزلاً عفا، هو لما يتجاوز الثالثة عشرة من العمر:

يضاف إلى هذا، اعجابه بقصائد خليل مطران العاطفية، وبقصيدة (المساء) بالذات التي يعدها شاعرنا من القصائد الخالدة.

في ظل هذه التأثيرات البيئية والطبيعية والاجتماعية والثقافية التي ألمحنا إليها، ولد حب ناجي في (أول عهده بالشباب) كما يقول احمد هيكل، مقدم ديوانه.

وكان يجب أن يكون حب هذا الشاعر حباً من نوع خاص، لما كان لهذه التأثيرات عموماً من أثر فيه، ولأنه أيضاً تولد في مرحلة مبكرة من شبابه، فتعاونت كل هذه العوامل على غرس البذرة الأولى لتجربته العاطفية، التي أغنت شعرنا الحديث بأدق قصائد الحب، وأعنفها وأصدقها. ولعل قصيدة (الأطلال) أو قصيدة (الميعاد) أو قصيدة (العودة) كفيلة بأن تضع هذا الشاعر في موقع الريادة بين شعرائنا العاطفيين المحدثين.

ويبقى أن نعرف شيئاً عن طبيعة هذا الشاعر العاطفي وعن نفسيته التي تميزت على طبيعة كل شعراء جيله، إذ ظل قلبه طوال سني حياته يخفق لحيه الاول العاثر، وظل هو مشدوداً إليه، مخلصاً له وظل شعره ينشد أغاني الالم والحرمان.

ويبدو أن أكثر من عامل أسهم في اخفاق تجربته العاطفية، وفشل حبه الذي ظل يتغنى به كل سني حياته (فطبيعته كانت طبيعة مفرطة شديدة الشفافية، ومفرطة الحساسية، فيها كثير من الانطواء المقاوم والحياء الغالب. ونشأته كانت نشأة فيها صقل وتهذيب بين بيئته ذات طابع روحي يوشك أن يكون تصوفياً، وذات تقليد اجتماعي يكاد يكون انفصالياً، والرجل لم يكن على حظ من طول القامة، كما لم يكن على قسط من الوسامة، وإنما كان ضئيل الجسم، قصيراً كبير الرأس، تلمع تحت جبينه أنفه الكبير شفتان عريضتان يزيدهما الانقسام عرضا وبسطا، هذا مع صوت غير بين النبرات، ونماذج حروف غير واضحة المعالم. فإذا كان ذلك الاطار يضم روحاً

طموحاً شديدة الثقافية وقلباً كبيراً دائم الحنين، ونفساً عظيماً كثيرة المطالبة، عرفنا كيف عانى الشاعر من الفراغ داخلة وخارجه) ويعلل احمد هيكل فشل ناجي في حبه الأول فيقول (أن فتاة أحلامه رفضته لأنها لم تجده على الهيئة المحببة لدى النساء. وكان هذا الرفض هو سبب إحساسه الدائم بالحرمان وشعوره بالظمأ، فهو يحس بالحرمان نحو كل امرأة جميلة، ولكنهن في الغالب لم يعاملنه كحبيب، ربما كانت هي عقدة حياة ناجي فعلا، تلك العقدة التي عمقت إحساسه وأفعمت وجدانه الرومانسي بالأحاسيس).

وقد وضع العقاد أصبعه على ناحية تلفت النظر، وهي أن ناجي كان يشعر في ظل والده (بالحماية ويتفقدها، ويعيش في ذلك الركن من الرعاية والحنان الذي يثوب إليه طالب الدعة والشكاية) يضاف إلى هذا ما أشار إليه إبراهيم المصري من تناقض في طبعه، فهو رقيق حيناً، وحاد حيناً آخر، مما انتهى بهذا الطبع إلى مزاج سوداوي متشائم.

ومهما تكن الأسباب التي ساعدت على هذا الطبع ، فإن تعثر حبه الاول قد رسم مسار حياته ومسار شعره ايضاً. ذلك إن إبراهيم ناجي- كما هو معروف ظل طوال حياته يعاني مرارة الحرمان وشعوراً بالخيبة إزاء حبه الفاشل. وقد انعكس هذا كله في شعره غناء شجياً ولحناً حزيناً وتجربة صادقة، فيها من حرارة العواطف ونبل المشاعر ما يضعها في قمة الاتجاه العاطفي في شعرنا الرومانتيكي الحديث.

على أن هناك شيئاً آخر لا يمكننا تجاهله، وربما هو الذي طبع شعره العاطفي بطابع الحنين، ذلك هو بعد الشاعر عن وطنه لمدة عشر سنوات، وهي سنوات فرقت بينه وبين حبه.

فحين تحقق لأبيه صلة ولده بالفتاة التي احبها، ارسله إلى انكلترا ليدرس الطب هناك وربما كان قد خطط لبعاده عن فتاة أحلامه، خشية أن تحول بينه وبين مستقبله لكن ذلك قد عمق احساسه بالحرمان وبالحنين، ولذلك ما أن انتهى من دراسته تلك عاد الى ارض الوطن، حتى سعى إلى دار حبه الاول ظناً منه أن حبيبته لا تزال في انتظاره وحين قيل له أنها قد تزوجت بغيره، صعق بما سمع وانشد اعظم قصائده رقة وعذوبة، وهي قصيدة (العودة) التي توجه فيها إلى ديار الحبيبة، وذكر ما كان له فيها على عهد شبابه الاول فقال:

هـــــذه الكعبـــــة كنـــــا طائفيهـــــا   والمصـــــلين صـــــباحاً ومســـــاء

كـــم ســـجدنا وعبـــدنا الحـــب فيهـــا   كيـــــف بـــــالله رجعنـــــا غربـــــاء

وهي القصيدة التي اجمع النقاد والدارسون على أنها من أفضل ما قيل من الشعر العاطفي في الشعر العربي.

شعره:

ليس في شعر إبراهيم ناجي موضوعات مختلفة، كتلك التي نجدها عند غيره من الشعراء، إلا أن هناك روافد متشابكة تلتقي جميعاً عند موضوع الحب، الذي يسيطر سيطرة كاملة على شعره، وهذا هو بالضبط ما عاناه الناقد محمد مندور، حين ذكر أن ديوان إبراهيم ناجي كله قصيدة واحدة هي قصيدة حب.

وقد انتهينا بعد قراءة فاحصة لشعره، أن هذه الروافد تتمثل في الحب الذي هو الموضوع الرئيسي في شعره، وأنها تتوزع على ما يأتي: عذاب الوحدة والضياع، الحنين واللهفة، الضيق بالحياة، الثورة والتمرد، الاستسلام للقضاء والقدر، اللجوء إلى الطبيعة وأخيراً التأمل.

والحب هو الأساس الذي يقوم عليه كل شعر ناجي، ومن أجله أنشد وتعذب وعرف طعم الحياة.

وحب ناجي، حب رومانتيكي، يسبح في أجواء الروح، ولا يعرف طريقاً إلى الشهوة، وإنما هو يرتفع إلى آفاق السماء:

أيكـــــون ذنبـــــي أن رفعتـــــك وارتفعـــــت إلـــــى الســـــماء
وعلـــــى جناحـــــك أو جنـــــاحي قـــــد رقيـــــت إلـــــى الصـــــفاء

وهو يرتفع عما يدنيه ويدنسه، ولذلك فإنه يسمو إلى درجة العشق الصوفي:

واحـــــس وحيـــــك مـــــن عـــــل لـــــي دون أهـــــل الأرض جـــــاء
أنـــــي عشـــــقتك مـــــا طلبـــــت علـــــى محبتـــــي الجـــــزاء

حين يعبر ناجي عن إعجابه بصفات من يحب لا نجد أثراً للوصف المادي المحسوس، بل هو يصف المحسوس باللامحسوس، ويوظف نظرية تراسل الحواس، فتتشابك في أوصافه المنظورات والمسموعات والمشمومات. وقصيدة (عينان من العراق) التي عبر بها عن إعجابه بفتاة عراقية من مدينة الموصل، تستطيع أن تؤكد هذه الظاهرة إذ يقول فيها:

عيناك بالصفو الوديع وبالطهارة راهبان
عيناك بالليل الربيعي المضيء شبيهتان
عيناك بالألق العجيب المستحب خميلتان
في أفق عمري كوكبان، وفي شعوري لاعجان
يتخطران عليه أنغاماً وأعطاراً حسان
عيناك اسرار مخلدة مقدسة المعاني
من صمت صحراء العراق وليلة مجبولتان
من اعين الغزلان في أرياضه مخلوقتان

من سحر بابل واللحون الموصلية غنوتان

حتى يقول:

يا شاعر الالم السعيد بلغت شطان الامان

وهي قصيدة لا تطرق ابواب المحسوسات، وإنما تناسب في اجواء العطور والانغام والالوان، وتتخذ من مظاهر الطبيعة وسيلة للتعبير عما تجيش به النفس، ويخفق به الفؤاد، كالليل والخمائل والربيع والصحراء، ويعتمد ظلال الرمز، تعبيراً عن عمق التجربة الشعورية، إذ لاتستطيع اللغة المباشرة– كما أسلفنا– الوفاء بهذا التعبير.

وهي مثال للصيرورة الرومانتيكية التي تتخذ من الرمز الخفيف وسيلة للتعبير عن التجربة.

ويتمادى شاعرنا في شعوره بالوحدة والضياع بغياب الحبيبة حتى صار فقدان الحبيب لديه (محنة وبلاء):

وتلفـــــــــت فـــــــــلا أنـــــــــت ولا   جنـــــة الخلـــــد ولا اطيـــــاف ســـــعد

وإذا بـــــي غــــــارق فــــي محنتــــي   وبلائــــــي أقطـــــع الأيــــام وحــــدي

هـــــات قيثــــاري ودعنــــي للخيــــان   واســــقني الــــوهم وعلـــل بالمحــــال

والحق ان هذا الشاعر قد عاش أجل الحب ومات بسببه، فحبه في نظرنا هو أساس الحركة والحياة والعيش والفكر والفن، وغيابه عنه يعني غياب هذه الحركة وموت تلك الحياة. ألم ببذل حياته كلها من أجل ذلك الحب، وأنه حين شعر بجفافه (نصب خياله وغاص طبعه ومات زرعه)؟ أسمعه يقول:

أجـــل أهـــواك أنـــت منـــى حيـــاتي   ومـــات علـــى حيـــاض اليـــأس زرعـــي

أجرجـــر وحـــدتي فـــي كـــل حشـــد   واحمـــل غرتـــي فـــي كـــل جمـــع

الحنين واللهفة على حب تعثر أو ذوى، ظاهر لا تتحقق في شعر ناجي بالذات، وإنما تتوافر في شعر الرومانتيكيين كلهم. وشعر هذا الشاعر يمتلئ حنيناً وشوقاً وتلهفاً على حبه الأول. وهو يذكرنا بشعر صديقه الشاعر (احمد زكي ابو شادي) الذي احب زينب في عنفوان شبابه، ثم تعثر حبه وأخفق، ولكن ذلك الحب ظل يلازمه طيفاً موحشاً مملاً حتى ملأ له ديوانه كاملاً اسماء (ديوان زينب) وهكذا ظل ناجي وأمثاله، يعيشون على ذكريات حبهم العاثر، حنيناً لا ينضب ولسان حاله يقول:

أمســــــى يعــــــذبني ويضــــــنيني   شــــوق طغــــى طغيــــان مجنــــون

أيــــن الشــــقاء ولــــم يعــــد بيــــدي   ألا أضـــــــــاليل تـــــــــداويني

ابتهـــــاج أن لـــــج الحنـــــين بـــــه ويـــــئن فيـــــه أنـــــين مطعـــــون

وتعد قصيدة (العودة) من القصائد الفريدة التي تتمثل فيها هذه الفكرة، وهي قصيدة يعدها محمد مندور (من روائع النغم في الشعر العربي الحديث، تندرج تحت فن عربي قديم هو فن البكاء على الديار) كما يعدها محمود حامد شوكت، من أجل قصائده التي (تتضح فيها نزعة التجديد من تشخيص وتجسيد وحوار داخلي وتنويع في القوافي ووحدة عضوية وتجربة شعورية وموسيقى صافية داخلية وخارجية تتواءم مع الحس العاطفي).

هـــــذه الكعبـــــة كنـــــا طائفيهـــــا والمصـــــلين صـــــباحاً ومســـــاء
كـــم ســـجدنا وعبـــدنا الحســـن فيهـــا كيـــف بـــالله رجعنـــا غربـــاء

وهنا نجد ناجي يستغرب من موقف ديار الحبيبة:

دار أحلامـــــــي وهـــــــي لقيتنـــــــا فـــي جمـــود مثلمـــا تلقـــى الجديـــد
أنكرتنـــــا وهـــــي إن كانـــــت رأتنـــــا يضـــحك النـــور إلينـــا مـــن بعيـــد

ونتيجة لهذا التنكر من ديار الحبيبة، يتساءل الشاعر عن سبب عودته، وكأنه يلوم نفسه لخذل تلك الديار له:

لـــم عـــدنا أو لـــم نطـــو الغـــرام وفرغنـــا مـــن حنـــين وألـــم
ورضـــــينا بســـــكون وســـــلام وانتهينـــــا لفـــــرع كالعـــــدم

ويثير ذلك التنكر في نفس الشاعر الأسى والألم:

آه ممـــا صـــنع الـــدهر بنـــا أو هـــذا الظلـــل العـــابس أنـــت
والخيـــال المطـــرق الـــرأس أناشـــد يـــا بتنـــا علـــى الضـــنك وبـــت

وحين ينتقل الشاعر إلى الحديث عن تلك الديار يذكرنا بوقوف شاعرنا الجاهلي على ديار الحبيبة، وكأنه يستوحي منه صورة وملامحة، فيقول وقد بدت في نفسه الحسرة:

مـــوطن الحســـن ثـــوى فيـــه الســـأم وســـرت أنفاســـه فـــي جـــوه
وأنـــاخ الليـــل فيـــه وجـــثم وجـــرت أشـــباحه فـــي بهـــوه
والبلـــى ابصـــرته رأى العيـــان وبـــداه ينســـجان العنكبـــوت
صـــحت يـــا ويحـــك تبـــدو فـــي مكـــان كـــل شـــيء فيـــه حـــي لا يمـــوت

والقصيدة طويلة وتعتمد التصوير القائم على الإيحاء الذي يتخذ من الرمز الخفيف وسيلة لتجسيد المشاعر العميقة في التجربة العاطفية، وهي صور لا تكاد تجد لها حدوداً، وإنما تحس في ظلالها ملامح هذه التجربة، التي يتجسد فيها الشعور بالضياع والاحساس بالملل. وغالباً ما ينتهي هذا الاحساس بالحسرة. ويرضى بالقدر المرسوم ليكون الاستسلام للقضاء، وهذا هو ما عبرت عنه الأبيات التالية من القصيدة نفسها:

كل شيء من سرور وحزن ... والليالي من بهيج وشجن
وأنا اسمع اقدام الزمن ... وخطى الوحدة فوق الدرج
علم الله لقد طال الطريق ... وأنا جئتك كيما استريح
وعلى بابك القي جعبتي ... كغريب اب من وادي المحن
فيك كف الله عني غربتي ... ورسا رحلي على أرض الوطن
وطني أنت ولكني طريد ... أبدي النفس في عالم بؤسي
فإذا عدت فللنجوى اعود ... قم أقضي بعدما افرغ كأسي

والواقع أن اليأس يدفع بكثيرين من ضحاياه إلى التمرد وسبب تمرد ناجي فيما نرى هو نفس سبب يأسه، فإيمان الشاعر بحبه، قد حقق له مواقف إيجابية حاول فيها أن يصون حبه، ويدافع عن حقه فيه، ويحارب الناس والدنيا في سبيل تحقيقه، وهي حالة طبيعية عند الرومانتيكيين، لأنهم يعدون انفسهم أصحاب موقف، ودعاة مذهب إنساني، فلابد لهم لكي يحققوا عالمهم المنشود من أن يبذلوا في سبيل تحقيقه كل ما يملكون من قبل أن يستسلموا لمقادير الحياة.

وهذا هو بالضبط ما أشار إليه إبراهيم المصري حين قال (أن شدة إحساس ناجي بالعواطف الرقيقة هي التي تضاعف شعوره بالألم. وهذا هو السر في تشاؤم ناجي وفي ازمات التمرد والسخط التي تنتابه)

وفي ديوان الشاعر كثير من القصائد التي تنبئنا عن تمرده وثورته على من أحب، ونكث في حبه وكذلك تمرد على زمانه وعلى الناس والاعراف.

وقصيدة (رسائل محترقة) تعد نموذجاً ناضجاً لهذا الموقف.

إلا إن قصيدة الأطلال تقف بين هذه النماذج في موقع القمة إذ تتراوح موجاتها بين الارتفاع الذي يمثله التمرد، والانخفاض الذي يجسده الاستسلام والخضوع للقضاء والقدر. وناجي في جوانب من القصيدة يتمرد على حبه وعلى حظه، ويطلب اثمن ما يقاتل من أجله الإنسان... الحرية:

أعطني حريتي اطلق يدي ... أنين أعطيت ما استبقيت شيئا

آه مـــن قيـــدك أدمـــي معصـــمي لـــم أبقيـــه ومـــا أبقـــى علـــى
مـــا احتفـــاظي بعهـــود لـــم تصـــنعا وآلام الأســـــر والـــــدنيا لـــــدي

وفي قصيدة أخرى يعبر عن هذه الثورة فيقول:

لكننـــــي والجـــــرح يلهـــــب لـــــي حيـــــي ويكـــــوي كـــــي إحـــــراق
هيهـــــات أنســـــى إنهـــــم عبثـــــوا ووفيـــــت لـــــم اعبـــــث بميثـــــاقي

على أن هذه الثورة التي أشرنا إليها، لا تلبث أن تصير سحابة صيف فتنقشعن إذ أن تيار الغضب والتمرد في شعر الشاعر لم يشكل ظاهرة حادة يحسب لها حساب في مجال المواقف الفكرية، بينما يشكل تيار اليأس والاستسلام في شعره ظاهرة تكاد تسود كل شعره. والاستسلام نوع من الهروب، يصاب به الانسان حين تعجز قدرته عن تحقيق آماله وتجسيد طموحاته. كما ان طبيعة الحياة ليست كفيلة بأن تمده بما يحقق أمانيه. ومن هنا يخضع الانسان لمقادير الحياة يندب حظه، ويبكي مصيره، ثم يلقي اللوم على القضاء والقدر لما آل إليه مصيره.

وهذا ما حصل لشاعرنا حيث تعثر حظه مع حبه، وآلمت حبيبته إلى غيره، فقد استسلم إلى يأسه واعترف بعجزه عن مجابهة الموقف، وطلب الموت تخلصاً مما هو فيه، كما عبر عن إفلاسه من الحياة، وما فيها، إذ ما قيمتها من غير حبه الذي خلق له؟ وكذلك جسد انسحاق نفسه وهروبه من الحياة واللجوء إلى كأس تنسيه، وبالتعبير عن شقائه ببكاء شبابه وبكاء أمانيه التي لم تتحقق.

وطالما صرح الشاعر باستسلامه للقضاء والقدر على طريقة العاجزين اليائسين، وهو استسلام يختلط بشعاع من أمل ضعيف يتعلق الشاعر به عسى ولعل:

يـــا حبيبـــي كـــل شـــيء بقضـــاء مـــا بأيـــدينا خلقنـــا ضـــعفاء
ربمـــــا تجمعنـــــا أقـــــدارنا ذات يـــوم بعـــد مـــا عـــز اللقـــاء
فـــإذا انكـــر خـــل خلـــه وتلاقينـــا لقـــاء الغربـــاء
ومضـــى كـــل الـــى غايتـــه لا تقـــل شـــئنا وقـــل لـــي الحـــظ شـــاء

اهتم شعراء ابولو اهتماماً شديداً بالطبيعة وهاجموا بها (في شعر حزين فأصبحت الحرم المقدس الذي يلجأون إليه في ابتهالات روحية ضارعة فوجدوا في أحضانها زاداً ورحمة وحناناً.

ولا يكاد يخلو شعر واحد منهم من ذلك الغناء الروحي الخالص للطبيعة التي تكون في كثير من الاحيان متنفساً لاحزان النفس، أو تعويضاً عن فشل في التكيف مع واقع الحياة وصراعات المجتمع ودنيا الناس).

وناجي من اكثر شعرائنا المحدثين لجوء الى الطبيعة استهوت نفسه لكل مظاهرها في حالتي الرضى والغضب والراحة والتعب، وحين يكون سعيداً راضياً أو شقياً ساخطاً فإذا ثار راح يستوحي البحر غضبه حتى لو (نزت الامواج في أوصاله) فراح يقول:

وأنـــا اليـــوم اجتليـــك مـــن الشـــاطئ تزجـــي الامـــواج مثـــل الجبـــال
فـــإذا بـــي اثـــور مثلـــك يـــا بحـــر وتنـــزو الامـــواج فـــي أوصـــالي

وإذا ضجر، وشعر بقلبه يتزلزل كما يتزلزل البحر على راكبه راح ينظم ابياتاً بعنوان (عاصفة) ليصور ما تعصف به نفسه، وما يضطرب به فؤاده فيقول:

زلـــزل البحـــر علـــى راكبـــه مثلمـــا زلـــزل قلـــب ضـــجر
ســـفر صـــار علـــى صـــاحبه ركـــب ضـــنك والمنايـــا ســـفر

وهو يفصح عما في نفسه من ثورة ويأس بما يصور من موج البحر وعبابه وصخوره، وكلها رموز تحوي إلى ما في نفسه من اضطراب هو اضطراب البحر بقوته وعنفه وثورته.

واستيحاء الطبيعة أو اللجوء إليها، لم يتحقق من خلال موقف الشاعر السلبي وحسب، إنما وجدناه في كثير من المواقف يلجأ إلى مظاهرها استئناساً للراحة، وسعياً إلى ما فيها من صور الجمال والحيوية والرقة والوداعة:

فـــي هـــدأة الأظـــلام أحيـــا مـــع الامـــواج
أحيـــا علـــى الانعـــام مـــن مالـــك الرجـــراج
ذابـــت بـــك الانـــوار ســـحرية الاطيـــاف
نشـــوانة التيـــار كـــالزورق الرجـــاف

أما الخريف، فقد صور به الشاعر، ما انطبع في نفسه من شعور بالضياع وهو يتحدث عن (جفاف الروض) و (الظلال القائمات) و(الغيوم) و(موت الروض) وغيرها من الصور الجزئية التي ما أن تتألف حتى تشكل صورة الرجل الحزين، الذي يشعر بدنو الاجل، وانتهاء رواية الحب المحقق.

وانظر إليه كيف يخلع على الخريف من يأس حاله وضنى قلبه وشعوره بالهزيمة وبالموت؛ ما يوحي إلينا أن الشاعر كان يشعر أن الخريف يتسع لنفسه المعذبة المهزومة.

وهذا ما يؤكد محمد غنيمي هلال، حين يتحدث عن الشعراء الرومانتيكيين فيقول (فمن بين فصول السنة، يفضلون الخريف لأنه يتفق ونفوسهم الآسية... وفيه تتجرد الغصون من

أوراقها وتعصف الريح بالأوراق الجافة. ويقف نبض الحياة في الأشجار وهذه المناظر توحي بالذبول والتحلل والفناء).

على أن هذا الجانب المتشائم الذي عكسته القصيدة، يقابله في شعر ناجي جانب آخر متفائل يعكس حبه للحياة، لأن قلبه معلق بحبه الأول.

ولعل قصيدة (نسمة الفجر) تعد مثالاً لهذا التيار المتفائل.

إن تطلعات ابراهيم ناجي وطموحاته في حبه ويأسه، قد أسلماه أحياناً إلى التأمل بالكون والطبيعة والتساؤل عن الحياة والاحياء والحب والأمن.

وفي تأملاته، يستجلي الشاعر بعض صور الحياة وموقف الإنسان منها، لكنه غالباً ما يستسلم في تأملاته إلى القدر، فالحياة عباب والإنسان يطفو فوق مائه:

إنمـــــا الـــــدنيا عبـــــاب ضـــــمنها وشـــــطوط مـــــن حظـــــوظ فرقتنـــــا

ولقـــــد اطفـــــو عليهـــــا قلقـــــاً فارقـــــاً فـــــي لحظـــــة قـــــد جمعتنـــــا

وشاعرنا في تأملاته، فضولي، يتساءل ويستفسر عن الحياة ومعناها والكون وأسراره والليل وألغازه، ولكن فضوله لا ينتهي إلى شيء. ومن هنا فقد صاحبته الحيرة في أغلب تأملاته. وخاصة ما يتصل بكنه الحياة والكون والطبيعة.

المصادر:

١- ناجي الشاعر: نعمات احمد فؤاد

٢- ناجي شاعر الوجدان: احمد المعتصم بالله

٣- الشعر المصري بعد شوقي

٤- مقومات الشعر العربي الحديث

٥- صوت الجيل: إبراهيم المصري

٦- الرومانتيكية